ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

تيبولوجيا التجارة التقليدية في منطقة القبائل

دراسة تاريخية لتجار الزيوت والتمور خلال فترة 1900 – 1962

Typology of traditional trade in the Kabylie region

A historical study of oil and dates traders during the period 1900-1962

غزالي محمد جامعة سطيف 02، الجزائر.

mghazali40@yahoo.fr

صابر لامية جامعة سطيف 02، الجزائر.

saber.lamia@gmail.com

الملخص:

كان التاجر ولا يزال بمثابة الجسر الذي يربط مختلف الحضريات من حوله، فهو يلعب دوراً كبيراً في خلق الحوار بين المناطق المختلفة وتضييق الفجوة بين مختلف المجتمعات المحلية، وتأتي هذه الدراسة في السياق التاريخي لإبراز دور تجّار الزيوت التمور في مختلف مناطق القبائل، هذه المنطقة التي كانت ولا تزال من أهم المراكز التجارية القديمة وكذا الحديثة. كما أن للتاجر أهمية كبيرة في خلق احتكاك بين القبائل الأمازيغية وغيرها في فضاء يتم فيه التواصل عبر المعاملات التجارية التي تفرض على التجار معرفة لغة وثقافة الآخر لتسهيل التواصل فيما بينهم، ويفسر الكثيرون امتهان الأمازيغ وتعاطيهم بشكل ملفت للنظر للتجارة، كونها مهنتهم المفضلة التي تدر عليهم الأرباح وتحقق لهم الحرية على اعتبار أن معنى الأمازيغي يدل على الإنسان الحر في التصرف والسلوك.

Abstract:

Trade is still a cultural bridge that crosses the rest of urbanization, it plays a big role in creating a dialogue between different regions and narrowing the gap

between different local cultures, and this comes this study in the historical context to highlight the role of the trader in achieving cultural communication between the different areas of Greater Kabylia, which was and remains one of the most important old and modern shopping centers.

The trade that moves has a great importance in creating friction between Berber tribes and other cultural space, in which communication is the commercial transactions that are imposed on traders who must know the language of the other to facilitate communication between them. Many researchers consider the work of Amazigh and their remarkably successful business relationships that generate profits for them and verify their freedom on the grounds that the meaning of the Amazigh means "the free man" in these provisions and their behavior.

We offer this study to determine the role of the trader in achieving cultural communication between regions, especially on oil traders and dates in the Amazigh region between 1900 - 1962, this time was awarded as an appropriate period to study subjects of this type for these types of traders who contributed to the Algerian revolution through the transfer of arms and all the news

أقوال في الأمازيغ

" ....وأما تخلُّق البربر بالفضائل الإنسانية، وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جُبلوا عليه من الخلق الكريم...، من عزّ الجوار، وحماية النزيل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد،...فلهم في ذلك آثار ينقلها الخلف عن السلف... وحسبك ما اكتسبوه من حميدها، واتصفوا به من شريفها، أن قادتهم إلى مراقي العز، حتى علت على الأيدي أيديهم... وما كان للبربر من آثار ما يشهد أخباره كلها بأنهم جيل عزيز على الأيام، وأنهم قوم مرهوب جانبهم، شديد بأسهم، كثير جمعهم، مضاهون لأمم العالم وأجياله من العرب والفُرس والروم."

ابن خلدون (العبر)

مقدمة:

نقدم هذه الدراسة لمعرفة دور التجارة في الربط بين المناطق وهي دراسة تاريخية عن تجار الزيوت والتمور في منطقة القبائل 1900 – 1962، حيث خصص الباحث هذه الفترة بالذات لأنها مناسبة لدراسة موضوعات من هذا النوع، لأسباب منها أن هذا النوع من التجار قد ساهم في الثورة من خلال نقل السلاح والأخبار أي سنتحدث عن الموضوع إلى غاية الاستقلال.

وستعتمد دراستنا هذه على إبراز نبذة عن تطور النشاط التجاري والتجارة في الجزائر عموما وفي منطقة القبائل خصوصا بالتطرق إلى وضعية الأهالي الاجتماعية والاقتصادية خصوصا في العهد العثماني ثم الفترة الاستعمارية التي هي امتداد طبيعي للفترة السابقة، ثم تناولنا أشكال التجارة في الجزائر، وأنواع السلع المعروفة خاصة لدى تجّار الزيوت والتمور بين 1900 – 1962 .

بالإضافة إلى مميزات منطقة القبائل الكبرى كسوق اقتصادي تجاري وخصوصية السلع الفلاحية والتقليدية المنتجة فيها وهذا بالتطرق إلى أهم المميزات الثقافية لمنطقة القبائل كالعادات، والتقاليد، والممارسات والطقوس، كما سيتم التطرق للجانب الاقتصادي والتجاري للمنطقة: كأنواع الأسواق، أنواع السلع الموردة، أهم السلع الفلاحية للمنطقة (الزيوت، والتمور).

كما تناول الباحث التجارة بين متطلبات الواقع وانعكاساتها على التواصل الثقافي وهذا من خلال دور التاجر في نقل اللهجات والأمثال الشعبية والحكم، وإرسائه لأنماط ثقافية جديدة بين المناطق التي يرتحل فيها، ومساهمته في الثورة والمقاومة الشعبية من خلال نقل الأخبار، السلاح، السلع والمؤن للمجاهدين.

أولا: تطور النشاط التجاري في الجزائر ووضعية الأهالي الاجتماعية والاقتصادية:

مرّ النشاط التجاري في الجزائر عبر مرحلتين مفصليتين نوردها على الشكل التالي:

1) النشاط التجاري في العهد العثماني:

إن دراسة موضوع التجارة لمجتمع ما لا تكون مكتملة دون معرفة التركيبة الاجتماعية له وخصوصية كل فئة من فئاته، من هنا تتوجب علينا الإشارة إلى مجتمع منطقة القبائل ومكوناته حسب ما ورد في ذكر أغلب الباحثين، حيث بقيت منطقة القبائل محتفظة ببعض معالم العهد العثماني حيث أن المدينة كانت في أوج تطورها وازدهارها حين كانت نقطة عبور

ISSN: 2437-041X
مجلة أنثروبولوجيا
DOI :
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

لنشاط تجاري مكثف، ويتمثل في المستوى العمراني كتجمع عدد كبير من الأسواق مخططة ومربعة الشكل كما حلّ بمنطقة القبائل عدد من التجّار العثمانيين وغيرهم كاليونانيين والعرب، وكان الأتراك يعيشون من أجرتهم ومن غنائم البحر وقليل منهم يهتمون بالتجارة ويمتلكون دكاكين تباع فيها منسوجات وحلي وعطور، وقد ظلت الأقلية التركية ضئيلة العدد لعدم انصهارها في المجتمع المحلي القبائلي عامة وبقيت بعزلة عنه وذلك رغبة منها في المحافظة على امتيازاتها وتمسكها بعاداتها ولغتها وأسلوب عيشها، واعتقادها بتميزها وتفوقها عن باقي العناصر الأخرى من جهة وخصوصية المجتمع القبائلي المتحفظة تجاه العثمانيين من جهة أخرى.

وقد تمثلت مخلفات الحكم العثماني في تطور العديد من أنواع التجارة كتجارة المواد والصناعات المعدنية والتحف والفخار، والتي ساهمت في بلورت الهوية المحلية للمجتمع القبائلي ونذكر منها على سبيل المثال تجارة أواني الطبخ الأكل والمشروبات ومختلف الأطباق الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، بالإضافة إلى الأباريق، أواني الطهي والمراجل والقدور الصغيرة والقلّات، السفرية أو سينيات أو صواني، أواني الحمام والطاسات والمحابس.[1]

2) النشاط التجاري في العهد الاستعماري الفرنسي: (الزيتون)

مما هو واضح فقد عملت فرنسا بمجرد دخولها إلى الجزائر على القيام بمسوح أنثروبولوجية للمجتمعات المحلية الجزائرية ورصدت نقاط القوة والضعف فيها ومن ذلك بنية منطقة القبائل، فبعد دخول فرنسا للجزائر سنة 1830 م بدأت تحتل الولايات تباعا، وكان نصيب منطقة القبائل أنها لم تسلم من هذا الاستعمار، حيث انتهج الاستعمار سياسة ماكرة قاهرة حقيرة اتجاه الأهالي، فقد انتُزعت منهم أراضيهم وسلمت للأهالي وكذلك جميع الامتيازات الأخرى، وكانت النتيجة الطبيعية تدهور معيشة المواطنين، وقد شكّلت زراعة وتجارة الزيتون واستخراج مشتقاته نموذجا حيا للاقتصاد الريفي أثناء فترة الاستعمار الفرنسي، وهو ما برز بشكل واضح في مداشر وقرى مدينة تيزي وزو على الخصوص، والتي شهدت حراكا ببساتين الزيتون بمناطق "واضية"، "بوغني"، "أزفون"، "تيغزيرت"، "معاتقة"، وغيرها.

حيث كان تجار الزيتون في عاصمة جرجرة وضواحيها، يعتبرون أنّ هذه المهنة وما يتّصل بها ركيزة للاقتصاد الريفي الذي يعتبر المورد الأساسي للعائلات الريفية المحلية، وتجارة مربحة بفضل ما تدرّه بساتين بلديات "مشطراس"، "آسي يوسف"، "تيزي نتلاثا"، "آيت بوعدو" من أرباح، وهذا من خلال جني حبات الزيتون التي توضع في أكياس من الألياف الخشنة قبل بيعها لتجار موسميين متخصصين.[2]

ISSN: 2437-041X
مجلة أنثروبولوجيا
DOI :
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

وقد عانى الفلاحون الأمرّين في تيزي وزو في فترة الثورة التحريرية المظفرة من تفاقم ظاهرة سرقة المحاصيل، ما أنتج أضرارا جمة على الأشجار اليافعة، حيث يُعمد إلى تحطيم الأغصان للإسراع في عملية الجني قصد تجنب الوقوع في قبضة أصحاب البساتين، مما يضطرهم في بعض الأحيان إلى كسر الأغصان وحملها بعيدا لقطف ثمارها فيما بعد.

ويُعرف تجار هذا النوع من الزيتون المسروق باحتلالهم لمواقع بعيدة عن أنظار القرويين، حيث يقترحون على هؤلاء الباعة "السرّاق"، المشكلين في معظمهم من فئة الأطفال، شراء بضاعتهم مقابل أثمان زهيدة وهم يعلمون تماما أن الأطفال سيقبلون بهذه الأسعار، كونهم مستعجلون للتخلص من بضاعتهم المسروقة التي لن يعترفوا أبدا بمصدرها، إذ يقولون دائما إنها صادرة عن أشجار بساتينهم العائلية.

ثانيا: أشكال التجارة في منطقة القبائل:

1) التجارة الداخلية:

سهّلت المبادلات بين الأقاليم والأرياف والمدن، وهو ما ساهم في ظهور أسواق ريفية كل"ها مدينة للطريق، وكانت تيزي وزو سوقا للزيت والحبوب والضأن، أما البويرة وبومرداس فقد كانت أهم سوق للقمح، وكانت "برج منايل"، "عزازقة" بلد الزيتون بامتياز كما احتفظت "بويرة" بمكانتها كأكبر سوق للمواشي[3] وكانت الأسواق التي تقدم للسكان حاجياتهم اليومية مرفقا هاما في كل مدينة ويبدو سوق "سرتيوس" بتيمقاد عينة نموذجية في هذا المجال ويمثّل تحفة معمارية، وقد ظهرت على محاور الطرق مراكز ريفية تقام بها أسواق نصف شهرية، بترخيص إداري من السلطات الاستعمارية، مثل "سوق البويرة"، و"سوق المدية"،

و"سوق أولاد بلليل"، و"سوق أمغنداس"، وغيرها وقد سجلت فيه السلع التي تخضع لضريبة المرور وهي: "السمك المصبر"، "الاسفنج" والثياب الصوفية (غالبا تصنع في مدينة جربة)، والمواشي والجلود، والتمور من الواحات وراتنج الصنوبريات من جبال الأوراس، وغيرها من السلع التي تصل المنطقة من كل أنحاء الوطن حتى عمق الصحراء.

2) التجارة الخارجية:

كان كل ما يتم من تبادل تجاري بين منطقة القبائل وفرنسا يتم تحت مراقبة الإدارة الاستعمارية، حيث كانت الصوف والخشب أهم صادرات هذه التجارة إلى جانب القمح والزيت، وفي هذا المجال اعتمدت السلطات الاستعمارية على خواص، والذين انتظموا في

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

جمعيات تضمن النقل الدائم للسلع من قمح وزيت وخمور، وكذا المواد المعدنية والمواد التي تدخل في البناء والزخرفة مثل القرانيت والرخام،[4] ولأهمية هؤلاء الناقلين تحصلوا على امتيازات خاصة وأصبحوا يشكلون مرفقا هاما، حيث كانت المراكب الفرنسية ترسو بميناء "روسيكادا" وميناء "بجاية"، وقد تشكلت مخازن للزيوت القادمة من منطقة القبائل التي تشكلت مع توالي الأيام، وهذا ما شكل نسبة 14 الى 15 % من مجموع ما تحوله السلطات الاستعمارية من المناطق التي تحتلها وهذا يعود الى ازدهار صناعة الزيوت في منطقة القبائل في الجزائر، وبالتالي فهذه الأخيرة كانت تزود فرنسا الاستعمارية بحاجتها من القمح ثمانية أشهر من أصل 12، حيث كانت كل الموانئ الجزائرية مرتبطة مباشرة بموانئ فرنسا الجنوبية، ولم يتوقف التصدير على القمح والزيوت، بل كانت تُحمل كل السلع.[5]

ثالثا: أنواع السلع المعروفة لدى التاجر المتنقل.

1) تجار الزيتون في منطقة القبائل:

منذ آلاف السنين وشجرة الزيتون جزء لا يتجزأ من طبيعة الريف القبائلي فهي تمثل رمز الهوية والثقافة والتقاليد القبائلية، ويعتمد غالبية التجّار في منطقة القبائل على زراعة الزيتون، على الأقل بشكل جزئي، كما تبدو ربحية الحالية من زراعة الزيتون جلية من خلال الزيادة في عدد المزارعين الذين يزرعون أشجاراً جديدة ويعتنون ببساتينهم ، كما ساهم قطاع زيت الزيتون بنسبة هامة جدّا من الدخل السنوي إبان الاستعمار في بعض من أفقر المجتمعات، وهذا خلال السنوات ذات المحصول الجيد ولزراعة الزيتون أيضاً جوانب اجتماعية وسياسية قوية، وفي حين أن قطاع زيت الزيتون ساهم بشكل كبير في الأمن الاقتصادي وولد الدخل وفرص العمل، إلا أن عقبات عديدة حالت دون تحقيق هذا القطاع إمكانياته كاملة، في ظل الظروف الاستعمارية، إن زراعة الزيتون وفرت فرص عمل على قلتها، وساهمت بتوفير دخل ثابت للعديد من الأسر الزراعية المنتجة لزيت الزيتون في منطقة القبائل لوحدها وهذا بتشغيل بساتين الزيتون على أنها شركات عائلية صغيرة.[6]

إن هذا القطاع وفر الآلاف من فرص العمل لسكان منطقة القبائل أثناء الاحتلال الفرنسي، فتجارة الزيتون ولدت فرص العمالة الموسمية للعمال خلال موسم الحصاد، والعديد من هؤلاء كانوا يعملون بنظام الزارعة بالمشاركة، أي يساهمون بعملهم خلال موسم الحصاد ويحصلون على حصة من المحصول في المقابل كما وفر هذا القطاع فرص عمل لأولئك الذين يعملون في المشاتل ومصانع التعبئة وكذلك للتجار.[7]

وعملت النساء في القطاع الزراعي للزيتون حيث لعبت المرأة دوراً نشطاً في إنتاج الزيتون وزيت الزيتون، وتحديداً في إزالة الحشائش الضارة، والحصاد، وتصنيف وفرز الزيتون والتخزين، وعلى الرغم من ذلك، فقد كنّ يفتقرن إلى السيطرة على ملكية الأرض التي كانت في كثير من الحالات ملكية لفرنسا، بالإضافة إلى عدم ملكية الأصول الإنتاجية (مثل الآلات) التي يتم التحكم فيها إلى حد كبير من قبل المستعمر، وكذلك عدم القدرة على الوصول إلى مصادر التمويل.

وقد كان تسويق الزيتون وزيت الزيتون يتم إلى حد كبير ببيعه من قبل الرجال في الأسواق المحلية أو للتجار والمصدرين، في حين أن النساء يعملن على بيع كميات صغيرة من خلال شبكات غير رسمية ومن داخل مجتمعاتهن المحلية ذات الربحية الأقل، ومع ذلك، سيطرت المرأة في كثير من الأحيان، ضمن الأسر التي تعيلها أنثى، على الأصول الإنتاجية مما منحهن القدرة على المشاركة والاستفادة من تجارة الزيتون على قدم المساواة مع الرجل[8]، ومن أشهر مناطق غراس الزيتون في منطقة القبائل الجهة الجنوبية لولاية تيزي وزو، الواقعة على بعد 40 كلم من المقر الرئيسي للولاية، على سفح الضفة الشمالية لجبال جرجرة، والتي عرفت في العهد الاستعماري بـ "بلدية جرجرة المختلطة"، وتضم هذه المنطقة كل من: "دائرة واسف"، "دائرة بني يني"، دائرة عين حمام"، وتعتبر هذه المناطق متجاورة فيما بينها، وتقع على ضفاف واد الجمعة، والتي كانت إلى وقت قريب حتى اندلاع الثورة التحريرية سنة 1954 بقعة يقام عليها أحد الأسواق الأسبوعية الأكثر شهرة في المنطقة بأكملها.

2) تجارزيت الزيتون في منطقة القبائل:

لقد أدى اتساع الزراعة الشجرية إلى انتشار هذه التجارة، وقد دل على ذلك العشرات من معاصر الزيت التي انتشرت على أهم القرى والمدن في المناطق القبائلية، حيث كانت الزيت مادة مهمة كثيرا لاستعمالاتها المتعددة كمادة غذائية، وقد كان مركز هذه التجارة المثلث الممتد من الساحل إلى عمق المنطقة الأوراسية وإلى سطيف على الخصوص، فقد كان تجار زيت الزيتون بالخصوص في مناطق البويرة، البليدة، بجاية، المدية، بغلية، تيزي وزو، ذراع بن خدّة وذراع الميزان... وغيرها يجنون الزيتون ليتم نقله في العربات ذات العجلتين، يقومون بإفراغه ووزنه، لتبدأ عملية الطحن وما يتبعها من عمليات حتى الحصول على الزيت، وعلى العموم لا تزال طواحين منطقة القبائل تحمل ملامح الطواحين القديمة، وتتبع نوعية الزيت وجودته تتبع نوع الزيتون ودرجة نضجه وكذا أدوات وطريقة عصره، لأن العصرة الأولى للزيتون نصف الناضج هي التي تعطي الزيت الجيد، ولا ريب أن الزيت الجيد كان للاستهلاك

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI: مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

البشري أما الأقل جودة فيوجّه للأغراض الصناعية والصحية وعلى الخصوص للإضاءة[9]، وقد اشتهرت العديد من مناطق القبائل بوفرة زيوتها وجودتها، فاشتهر زيتها بحسن مذاقه و طعمه محافظا عليه ولو خزن لمدة طويلة، وفضلا عن استخلاص الزيت من الزيتون كان سكان القبائل يستخرجون الزيت الذي يستخدم لأغراض عديدة إما لطهي بعض الأطعمة كالإسفنج، أو لإنارة القنادل أو لدهن شعر النساء، أما بقية الحبوب وثمار الأخرى التي ذكرناها فرغم تواجدها في منطقة القبائل إلا أننا لم نجد في المصادر ما يشير إلى استخراج الزيوت منها في الجزائر، وعلى الرغم من ذلك هناك إشارات إلى استخراج الزيوت من السمسم وكتان وجوز.[10]

3) تعامل التجار القبائل مع تجار القبائل الصحراوية في تجارة التمور:

يجمع المشتغلون في حقل الدراسات التاريخية على أن الدور الذي لعبته الصحراء الجزائرية في فترة الاستعمار كبير حقا، فعن طريقها نشطت تجارة القوافل الصحراوية للتجار الجزائريين مع مناطق الشمال عموما ومنطقة القبائل خصوصا والتي تعد نقلة نوعية كبيرة في تاريخ التجارة الجزائرية خلال فترة الاستعمار الفرنسي.

لقد اعتبر الكثير من الباحثين أن الصحراء شكلت عائقا للاتصال الحضاري المثمر بين الجنوب والشمال، وحجتهم في ذلك وجود حاجز من الرمال المترامية الأطراف التي تفصل بينهما، وتوهموا أن هذا الحاجز ليس جغرافيا وفقط، بل أيضا سيكولوجيا مانعا لانتقال الأشخاص، وقد أدّت هذه القراءة الفوقية لتاريخ وجغرافية الصحراء على تغييب الآلية الحقيقية لصيرورتها فعوض أن يبرز هؤلاء الباحثين الصحراء كأداة وصل فعالة بين تجار قبائل الصحراء وتجار منطقة القبائل، آثروا أن يحجموا عن إبراز أهميتها التاريخية والجغرافية خلال هذه الفترة.

فالقائمون على التجارة الصحراوية هم سكان المدن البربرية في حين كان البدو الرحل هم من يقوم بنقل هذه البضائع فيتفاهم رؤساء القوافل مع قادة القبائل الجنوبية لتزويدهم بأذلاء وحراس مقابل منح تختلف باختلاف أهمية الحمولة، فكانت قبائل بأكملها تعيش مما تذره عليها حماية وإرشاد القوافل التجارية وبمرور الزمن أصبح لهذه القبائل ممتلكات بالمنطقة (بيوت، غابات النخيل، ومخازن).[11]

ومع الوقت اكتسبت التجارة الصحراوية قوانين متعارف عليها تخضع للظروف البيئية والحالة الأمنية للطرق، كما تخضع أيضا لثقل الحمولة وقيمتها، فتشكل بذلك مجتمع تجاري على أساس ترابط عجيب نظمت فيه طرق القوافل وتوزيع التجار كما حفرت الآبار على طول الطرق التجارية، فأصبح انتقال البضائع في الصحراء بصفة عامة وهذه المنطقة بصفة خاصة يتم بطريقتين مشهورتين أولاهما هي القافلة التي تضم مجموعة متعددة من التجار الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريقة والتي لابد لها من دليل أو أكثر لبلوغ غايتها، وثانيهما هي النجع أو قبيلة السيارة التي تنتقل بكاملها، ولذلك فهي أبطأ من الأولى ولكنها أضمن بالنسبة للتجار.

وقد كان انتقال البضائع يتم عن طريق القبائل الرحل المعروفة بالنجع كما سبق الذكر، وتتقيد هذه القبائل بقانون سنوي نشأ نتيجة الظروف الطبيعية إذ تنتقل القوافل باتجاه الصحراء فيصلوا وقت جني التمور أي في حوالي منتصف شهر أكتوبر فتستبدل بضائعها من قمح وصوف خام، وزيوت، وأغنام، وزبده بالتمور، والنسيج الصوفي المصنوع من طرف النسوة وبانتهاء عملية المقايضة تخزن التمور في المخازن لتبتعد القبائل بعد ذلك عن القصور وتقود قطعانها نحو مراعي.

فتقضي فصل الشتاء والربيع بالصحراء لتوفر الماء والكلأ فلا تبقى في مكان سوى ثلاثة أو أربعة أيام لتنتقل إلى غيره ومع نهاية الربيع تمر مرة أخرى بالقصور الصحراوية لتحمل جمالها بالتمور، والنسيج لتتجه نحو شمال في الوقت الذي يقل فيه الكلأ بالصحراء، في حين تكون المناطق الشمالية.

في وقت حصاد القمح فتقضي هذه القوافل فصل الصيف في حركة تجارية نشيطة تستبدل خلالها حمولات التمر والنسيج بالحبوب والصوف الخام والغنم والزبدة، ومع نهاية الصيف تستعد القافلة من جديد للرحيل باتجاه الصحراء فتحمل الجمال وتطوى الخيام ويبدأ السير ككل مرة.

ومن أشهر القبائل التي كانت تقوم هذه العملية هي قبيلة "أولاد نايل" التي تتكون من خمسة فروع أشهرها أولا مولات، والطيبات ، وأعراب غرابة ، وأولاد سايح، وأولاد سعيد بن عمر[12] ، ومع هذه الحركة النشيطة لهذا النوع من التجارة كان لابد من وجود أسواق تستوعب وتوزع هذه البضائع بطريقة تجارية منظمة تسمح لها بأن تكون مركزا تجاريا مهما يقصده كل التجار، فأسواق الزاب، ووادي سوف، وتقرت، وتماسين، وورقلة، وغرداية ... من أهم الأسواق

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

بالجنوب الشرقي والتي كان يقصدها التجار القبائل من مختلف الأرجاء ومن أهمها قبائل جبال "عمور".

وتعرف بالمنطقة الشرقية وصحرائها نوعان من الأسواق: أسواق محلية يقصدها مختلف تجار القبائل في أيام معينة من الأسبوع يأتيها أقرب الناس، وأسواق جهوية أشهرها سوق تقرت الذي كان يقام في ساحة أمام الجامع الكبير (سوق صوفة)، وسوق ورقلة، وسوق أولاد عبد النور، وسوق الحراكته، وسوق السكنية، وسوق التلاغمة. [13]

وقد ظلت منطقة الزاب، ومنطقة وادي سوف، ومنطقة وادي ميزاب، ومنطقة وادي ريغ (تقرت، تماسين...) ومنطقة وادي مية (ورقلة، نقوسة...) محورا واحد ومركزا رئيسيا لتجارة التمور ومحطة قارة ومنطلقا سهلا باتجاه تونس وطريقا طبيعيا نحومناطق التلية بالشمال. [14]

❖ **أهم واحات إنتاج التمور:** تعتبر الواحات المتفرقة عبر ربوع الصحراء الجزائرية المناطق الزراعية الرئيسية لنخيل التمور وهي كما يلي:

- ✓ الزيبان: بسكرة، بوسعادة، طولقة.
- ✓ وادي سوف: الوادي.
- ✓ وادي ريغ: ورقلة، توقرت.
- ✓ واحة واد ميزاب.
- ✓ توات: أدرار، رقان.
- ✓ ساورة: بشار.
- ✓ الهقار: تمنراست.
- ✓ تيديلكت: عين صالح.
- ✓ تادميت: المنيعة.

التمور الجافة	التمور النصف الجافة	التمور اللينة
•دقلة بيضة	• دقلة نور	•الغرس
•مش دقلة	• تمجوهرت	•ادالة
•تين ناصر	• أزرزة	•بنت أخبالة

أنواع التمور[15]

4) صغار التجار والباعة المتنقلين:

يمثل صغار التجار والباعة المتنقلون شريحة كبيرة من الطبقة العامة على أساس أن التجارة هي 'محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السلع بالرخص و بيعها بالغلاء أيا ما كانت السلعة' وهذا ما يمكن صاحبها من مغالبة الفقر و مدافعة نوائب الدهر ولعل ما يدل دلالة واضحة على إقبال عامة الناس على الأمثال الشعبية المعاصرة، والتي تعبر عن هذا الاتجاه فشملت أمثالهم الحوانيت أو دكاكين التي كانت تسد رمقهم و تضمن عيشهم داخل المجتمع.[16]

وتميزت أنواع السلع التي يتم عرضها في أسواق منطقة القبائل والتي لا تختلف عن غيرها في معظم المدن الإسلامية، فكان لكل نوع من أنواع التجارة أو حرفة من الحرف شارعا أو سوقا باسمه فهنالك أماكن خاصة لتجار المنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها من أنواع المنسوجات، كما كان لتجار الأحذية شارعا خاصا بهم يعرف باسم سكة الاسكافيين، وخصص مكان لتجار الخضر والفواكه المختلفة الأصناف التي ترد من القرى القريبة للمدن المركزية، وبجوارها ينتشر باعة اللحوم من بقر و غنم و ماعز التي يشترط فيها على باعتها أن يجعل كل نوع في حانوت على حدة، حتى لا يحدث غش، و يخلط الجزار لحم الضان بالماعز، ولا يخلوا السوق من مكان لباعة الطيور والأرانب المذبوحة، وإلى جانبهم باعة الطيور الحية و غيرها، و يجلس بجوارهم أيضا باعة البيض، و بجانب كل بائع منهم إناء مملوء بالماء لاختبار البيض، وشملت شريحة التجار الصغار أيضا باعة الزيت وزبد وسمن وعسل بينما ينتشر هنا وهناك باعة المجبنات، والإسفنج الساخنة وسجق وهريس– الذين خص لباعتها سوق يعرف باسم (سوق الدخانين) التي ولع المستعمرين بأكلها، كما نشط التجار في تجارة الحبوب سيما القمح وشعير وذرة و غيرها من البقول المختلفة، أما تجار الدقيق فكان لهم سوقا خاصا هذا فضلا

عن انتشار تجارة العطارة و غيرهم كتجار الجير وفحم وقفاف وخبازين وغيرهم من التجار وهم كثر.[17]

رابعا: مميزات منطقة القبائل الكبرى كسوق اقتصادي تجاري تاريخي وخصوصية السلع الفلاحية والتقليدية المنتجة فيها:

1) الأنماط الثقافية المتعلقة بالتجارة والسوق في منطقة القبائل:

شكلت الأسواق عصب الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات المغاربية وهذا ما عكسته الأدبيات والسوسيولوجيات وحتى العلوم الشرعية.

إنّ السوق هو موضع الذي يجلب إليه المتاع والسلع للبيع أين تجتمع في هـ الناس للبيع والراء وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى:"وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا"،[18] وقوله تعالى:" وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلّا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق".[19]

والسوق يعتبر الفضاء الأكثر حيوية ضمن النسيج العمراني للمدينة، إذ لم تقتصر وظيفته على أنه المكان الذي تجتمع فيه السلع والبضائع المختلفة وأنه مركز النشاط التجاري الداخلي والخارجي والإنتاج الصناعي، بل يعكس التفاعل الاجتماعي بين مختلف الشرائح الاجتماعية حتى قامت بوظائف متنوعة كالاجتماعية والثقافية، إذ تحولت إلى ساحة إعلامية ،يتم من خلالها تبادل الثقافات وعرض الأشعار وصنوف الأدب المختلفة ومعرفة أخبار القبائل والدول والمجتمعات وقد ذكر الإدريسي أن "سوق ريغة" كان يباع به ويشترى ويقضى منه حوائج، إلى جانب ذلك وردت إشارات عديدة في المصادر التاريخية، وأنه اتخذ من الأسواق ميدانا للإشهار بالمخالفين للسلطة الحاكمة.[20]

يعد السوق مؤسسة اجتماعية متعددة المهام فلا تقتصر على التبادلات الاقتصادية المادية فحسب بل تتوسع إلى أكثر من ذلك فهي تتحول إلى مكنونات ثقافية رمزية تحمل في طياتها ثقافات الشعوب والممارسات المختلفة فيها.

كما تعد الأسواق من أحسن وسائل التواصل الثقافي والاجتماعي للأفراد ،المدن وحتى الحضارات، ويعتبر السوق في المجتمعات الريفية والقبلية في منطقة المغرب العربي على حد تعبير "بورديو" وسطا ذكوريا بحتا يقوم على أساس الشرف والرجولية وهو فضاء خاص

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

بالرجل الذي لا يتسنى لأي غريب أن يدخل فيه، وفيه تظهر كل أشكال التدافع الرجولة الفطنة والحكمة سواء في التحاور أو شراء أو في محاولات تخفيض الأسعار أو تقنيات البيع لدى التاجر.[21]

2) أنواع الطقوس المتعلقة بالسوق في منطقة القبائل:

يعد الخروج إلى السوق أحد الطقوس الأكثر أهمية في حياة الفرد في منطقة القبائل ففيها ينتقل الطفل من المرحلة الأنثوية (حضن الأم) إلى المجال الذكوري (رعاية الأب) الذي يشرع في تكوينه وإعداده لتولي المسؤولية فيما بعد، وترتبط بالموضوع عدد من الطقوس التي تمارسها العائلة القبائلية فيما يخص السوق والتي سماها arnord van-gennep بطقوس المرور وهي جملة من الطقوس التي يمر بها الفرد في الحياة من مرحلة لأخرى وتقام مراسيم طقوس المرور الخاصة بالتوجه للمرة الأولى للسوق على مراحل مختلفة قبل وبعد السوق وعلى مستويين مختلفين الرجال والنساء وتتمثل في:

أ. التحضيرات عند النساء:

بمجرد أن يولد طفل العائلة تقوم الأم والجدة بنسج "برنوس" صغير تحسبا لمختلف المناسبات الاحتفالية التي سيعرفها خلال السنوات القليلة المقبلة من تحليق الشعر والخروج إلى الحي وطقوس الختان وآخرها الخروج إلى السوق، وفي يوم خروج الطفل إلى السوق تقوم النساء من العائلة بعملية جمع صحون بقول جافة من الجيران الذين سيعلمون قبلا بموعد خروج الغلام إلى السوق.

ب. التحضيرات عند الرجال:

يقتسم الرجال من العائلة مهمة اصطحاب الطفل إلى السوق و تحضير مستلزمات الاحتفال بهذا الخروج.

ت. المراسيم:

تبدأ المراسيم بارتداء "البرنوس" فوق الثياب الجديدة حتى يتميز الطفل عن الآخرين وفي أثناء خروجه ترافقه الأم برش قبضة ملح وذلك في معتقد إبعاد العين الحاسدة، وفي حين وصول الطفل رفقة الأب أوجد إلى مقهى القرية يقدمه إلى الحشد المتواجد في السوق والذي

يلقى ترحيب من الجميع، بعدها ينتقل الطفل إلى رحاب السوق فيعرفهم الأب بمرافقه الجديد الذي سيتعاملون معه من اليوم فصاعدا في حالة غياب الأب أو بالنيابة عنه، ومن أهم مراسيم الدخول الأول إلى السوق هو شراء مقتنيات العشاء والتي في قائمتها رأس ثور الخضر والفواكه.[22]

وقد نتساءل لما كل هذا الاهتمام بالذكر دون غيره من أفراد الأسرة؟ يعتبر الطفل رأسمال رمزي بالنسبة للعائلة فهو بمثابة ضمان لاستمرارية النماذج القيمية التي بنيت على أساسها العائلة على وجه الخصوص والقرية على وجه العموم كما يعد الفاعل المؤمن للحفاظ على شرف العائلة وعلى مكانتها الاجتماعية.

3) الجانب الاقتصادي والتجاري لمنطقة القبائل:

كانت منطقة القبائل ذات أهمية تجارية كبرى، ولم تكن في مأمن من حيث المبادلات التجارية، وذلك بسبب الخوف من محاولات استخدام تلك المبادلات للتحريض على الثورات من طرف الثائرين على الاستعمار، وبالرغم من إعفاء سوقها من الرسوم والمكوس بهدف تحفيز التجارة به، إلا أن دور ضباط المكاتب العربية كان يتوقف على مراقبة تحركات الأهالي، أما تجارتها فكانت تتمحور خاصة في الحبوب، الزيت، المواشي، الأقمشة، كباقي المدن الأخرى،[23] ومهما يكن من أمر فإن منطقة القبائل كانت بمقتضى علاقاتها التجارية الداخلية والخارجية ذات أهمية بالغة بالنسبة للمصالح الاقتصادية الاستعمارية، في حين كانت المعاملات التجارية بين الأهالي تقوم على أساس الثقة المتبادلة بينهم، ونتيجة لانعدام الثقة تجاه المستعمر، لم يكن بعض الأهالي يتعاملون معه تجاريا.

أما في مدينة بجاية فلم تكن تقل أهمية من الناحية التجارية عن مدن منطقة القبائل الكبرى، حيث أن التجارة بها كانت نشطة، فقد سجل ضباط المكاتب العربية في تلك المنطقة أنها كانت على صلات اقتصادية بالجنوب، حيث كان يذهب جزء كبير من حبوبها إلى الجنوب وإلى سكيكدة للتصدير، كذلك كانت تشتهر بتجارة الزيوت في حين تصلها كميات معتبرة من التمور قادمة من الجنوب يتم مقايضتها في الغالب بالحبوب.[24]

وكانت تتميز أيضا بصناعاتها التقليدية المتمثلة في" البرنوس"، "الحائك"، "الزرابي" وغيرها، كما دل على ذلك تقرير 25 أكتوبر، أما الصادرات من مينائها خاصة الحبوب والصوف فقد كانت معتبرة حيث بلغت عام 1911 ما قيمته 234,789 فرنكا، وارتفعت تلك

الصادرات بزيادة مليونين فرنكا أي ما قيمته 2,245,813 فرنكا وذلك بعد سنة فقط أي سنة 1912.

هذا وقد نشطت تجارة زيت الزيتون حيث قدرت 837,000 لترا في الثلاثي الأول من نفس السنة، لترتفع صادراتها إلى فرنسا في كامل السنة إلى 1,114964 لترا، وتلك الثروة الثمينة كان المستفيد منها الأول والأخير هو استعمار الفرنسي دون منازع، وقد كانت المنطقة تحفل بالأسواق الأسبوعية التي كانت ولا تزال تقام في أحد أيام الأسبوع في مواطن عدة بمنطقة القبائل بتاريخ يمتد لآلاف السنين، حيث اتخذها التجار خلال رحلاتهم التجارية الطويلة، ومغنما لبيع وشراء البضائع، وقد تصدرت تلك الأسواق حركة التجارة الداخلية، التي نشطت في بلاد القبائل، فكانت تقام في المدن والقرى الصغيرة، حيث كان لكل قبيلة أو عشيرة سوق يقام في أرضها، ويسمى باليوم الذي يقام فيه، كسوق الجمعة، وسوق السبت، وسوق الاثنين، شهدت مراحل التطور في البيع والشراء ابتداء بالمقايضة، وصولا إلى العملة الورقية.

وكانت الأسواق بمثابة المولات التجارية في العصر الحالي لكنها متنقلة، حيث يحرص أرباب الصناعات والبضائع على حضورها لعرض منتجاتهم، ابتداء من الصباح الباكر، وحتى آخر النهار، وذلك تحت حماية القبيلة، التي يقام السوق على أراضيها. ولم تكن وظيفة الأسواق تقتصر على البيع والشراء، وإنما لتداول الآراء، وتناقل الأخبار، حيث كان في معظمها مكان مرتفع يستخدم للإعلان، حيث كان السوق الواحد يضم عدة أسواق، منها سوق للحبوب، وآخر للماشية، كما عرفت تلك المناطق الأسواق الدائمة، وشهدت بعض الأسواق وجود حوانيت ومحال صغيرة في أطرافها، خاصة في الأسواق الكبيرة بالمدن مثل: "أقبو"، "الأربعاء نايث اراثن"، "البويرة"، "بغلية"، "بوغني"، "تازمالت"، "تيزي راشد"، "ذراع الميزان"، "ذراع بن خده"، "سبت ايت يحي"، "سوق عمراوة"، "عزازقة"...الخ، ويوجد العديد من الآثار والنقوش التي لا تزال واضحة للعيان في بعض الأسواق، التي تحتاج إلى تضافر جهود الدارسين والمهتمين لدراستها والتنقيب عن آثارها.[25]

خامسا: أنواع الأسواق وتنظيماتها في منطقة القبائل:

يعتبر السوق الفضاء الأكثر حيوية ضمن النسيج العمراني للمدينة، إذ لم تقتصر وظيفته على أنه المكان الذي تتجمع فيه السلع والبضائع المختلفة، وأنه مركز النشاط التجاري الداخلي والخارجي والإنتاج الصناعي، بل يعكس ذلك التفاعل الاجتماعي بين مختلف الشرائح الاجتماعية، حتى قامت بوظائف متنوعة كالاجتماعية والثقافية وتحولت إلى ساحات إعلامية، يتم من خلالها تبادل الثقافات وعرض الأشعار وصنوف الأدب المختلفة، ومعرفة أخبار القبائل

والدول والمجتمعات، إلى جانب ذلك وردت العديد من الإشارات في المصادر التاريخية على اتخاذ الأسواق ميدانا للإشهار بالمخالفين، حيث أنه كلما كثرت الأسواق في مدينة ما كان ذلك دليلا على سعة نشاطها الاقتصادي ومن المؤكد أنه كان لكل قرية سوق خاص بها، وقد كانت الأسواق في المنطقة القبائلية، عبارة عن أحياء تجارية مغلقة تقام غالبا على مشارف المساجد، حيث لا تزال آثار هذه الأسواق باقية حتى الآن، إضافة إلى أن تواجدها كان وسط التجمعات السكانية، أو عند ملتقى الطرق التجارية، وأهم خصائصها مأخوذة من خصائص نظام الأسواق الإسلامية وإن بدت الفوارق فيما بينها من حيث التسيير وأنواع المعاملات.[26]
كما كانت الدكاكين تُنشأ على جانبي الشوارع الكبيرة، ويُجعل لكل صنف من أصناف التجارة موضع خاص، حيث اختصت إلى جانب أنها أماكن لأصحاب الحرف إلى جانب بيع القماش والكتان والصوف والقطن وأنواع التوابل، وأخرى لبيع الفواكه والخضروات، كما كان هناك وجود لما يسمى بالرحبات-62 الخاصة بالحبوب، وأخرى خاصة بيع الدواب والماشية. [27]

وغالب ما كان هذا النوع من الأسواق مبنيا ومسوّرا ومغطى ما عدا رحابه التي كانت مكشوفة الغطاء وهي تتربع في قلب المدينة، لكن هذا النوع من الأسواق كان مخصص للخزن والتسويق وهذا ما يفسر وجود أسواق جانبية محاذية تحتل المساحات القريبة والتي كانت تزاول نشاطها بشكل يومي، بالرغم من اندثار أغلب مظاهر هذه الأسواق بفعل الاستعمار الفرنسي الذي حاول محو معالم الثقافية والتاريخية للمنطقة كما لا تزال المحلات القديمة الصغيرة تحتفظ بإرثها الثقافي المتمثل في بيع الملابس التقليدية والزي القبائلي الرسمي، والمصوغات من الذهب والتحف الفخارية والمقتنيات الجلدية.[28]

وتولي بعض الجهات الرسمية في الجزائر منذ سنوات بعض هذه الأسواق الأسبوعية نوعًا من الاهتمام في صيانتها والحفاظ على ما يوجد بها من تراث وآثار قديمة، حيث تعد العناية بصيانة هذه الأسواق الاقتصادية الأثرية، والعمل على ترميمها وتجديدها كأحد مظاهر التطور الحضاري.

كما نسبت الأسواق إلى أسماء القبائل المشرفة عليها كسوق "دائرة واسف"، وسوق "دائرة بني يني"، و"دائرة عين حمام"، والتي كانت تحتوي على أحد الأسواق الأسبوعية الأكثر شهرة في المنطقة بأكملها "سوق الجمعة"، إذ صنفه "مارسيل ريمون" في ثلاثينيات القرن الماضي كثاني سوق بعد "سوق الحراش"، حيث كان الناس يقصدونه من كافة البلاد حتى من تونس.[29]

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

وقد توقف سوق الجمعة من الاعتمار نهائيا بعد الأحداث الدامية التي عرفتها رقعته بعد اندلاع الثورة التاريخية مباشرة، والتي ذهب ضحيتها عدد من الشبان عثر عليهم مشنوقين على الأوتاد المخصصة للجزارة، وقد ظهر بعد الحادثة الدموية ثلاث أسواق ثانوية لم ترتقي أهميتها الى أهمية "سوق الجمعة" تميزت بأنها محلية، تابعة للقبائل التي تقع تحت أراضيها، وقد كانت تقام الأسواق الثلاثة في أيام مختلفة حسب القوانين المتعامل بها في تسيير الأسواق، حيث نجد سوق "عرش واسف" والذي كان يعمر كل يوم أربعاء، وسوق عرش "عين حمام" يعمر يوم السبت (في البداية ثم يوم الثلاثاء بعد إخلاء سوق عرش "بني يني"الذي كان يعمر يوم الثلاثاء).[30]

كما عُرفت بعض الأسواق بنوع النشاط المزاول فيها، كسوق الدواب الذي كان يُمول من طرف مربي الحيوانات من مناطق مختلفة من القبائل الكبرى كما تواجدت بمدينة بجاية أسواق كانت تُعرف بالاختصاص في البضائع كسوق الغزل والنحاس والأقمشة.[31]

كما عُرفت مدينة سطيف الاقتصادية على أنها كبيرة جليلة عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار رابحة التجارة، كما شهدت المنطقة انتشار الأسواق المؤقتة أو موسمية، والتي كانت تعقد في أيام معينة من الأسبوع أو شهر أو سنة وعلى سبيل الذكر لا الحصر "سوق الأحد"، "سوق الاثنين"، " سوق الخميس"، "سوق الأربعاء". [32]

سادسا: انعكاسات التجارة المتنقلة على التواصل الثقافي:

1) دور تجّار منطقة القبائل في نقل اللهجات والأمثال الشعبية والحكم:

لعبت الأسواق الأسبوعية دورا مهما في دينامكية المجال القروي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وتكيفت حسب خصوصيات كل فترة تاريخية، فهناك أسواق قديمة ترجع إلى ما قبل الفترة الاستعمارية وهناك أخرى أحدثها الاستعمار الفرنسي إما لأغراض اقتصادية أو سياسية، وهناك أسواق استحدثت في عهد الاستقلال.

وفي منطقة القبائل كان هناك تواجد للعديد من الأسواق التي يرجع وجودها إلى فترة ما قبل الاستعمار لكن دورها قد تراجع محليا مع بزوغ فجر الاستقلال، فتجّار منطقة القبائل على غرار باقي تجّار الأسواق الأسبوعية الجزائرية حملوا نفس سمات المنطقة وعادات وتقاليد

ISSN: 2437-041X مجلة أنثروبولوجيا
DOI : مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

السكان، من خلال توافدهم الدائم على الأسواق التي تعتبر مركزا للالتقاء والتشبع بقيم الأواصر والتعارف التي تعتبر فطرة في الإنسان، فإذا تركنا جانبا الدور الاقتصادي المهم الذي تلعبه هذه الأسواق فقد كان لها دور آخر لا يقل أهمية ثقافية وحضارية، فقد ساهم التجار في تطوير اللغة حيث زادت قيمتها وبلاغتها انطلاقا من الأسواق، ففي أسواق القبائل كانت تلتقي أفواج من تجّار القبائل متعددي اللغات واللهجات، ويتم التلاقح الثقافي بين مختلف اللهجات، و تتكامل و تستورد و تصدر لبعضها البعض المصطلحات ومفردات الجديدة، ولهذا نجد المناطق المنبسطة وسهلة الولوج تكون لهجاتها متقاربة و مصطلحاتها من نفس المعنى، ولكن عندما ننتقل إلى المناطق ذات التضاريس الوعرة التي تنتصب الجبال حواجز أمام اتصال بعضها بالبعض تختلف اللّهجات بشكل واضح و هدا راجع لغياب التواصل الذي يتجسد في الأسواق الأسبوعية.[33]

و بالإضافة إلى الدور الثقافي هناك دور اجتماعي متميز كان للتجار الأثر البالغ فيه من خلال السوق الأسبوعي الذي تلتقي فيه القبائل ومناطق المختلفة، فيتم بينها التعارف وتالف بينهم والذي يتوطد بعلاقة المصاهرة و مؤسسة الزواج، ففي منطقة القبائل كانت هناك العديد من الأسواق المشهورة بهذا الدور الاجتماعي، ويعتبر السوق أيضا مكانا لتوثيق عقد النكاح عند العدل الذي يتخذ له محلا في السوق يرتاده الراغبون في الزواج.

2) التاجر المتنقل ومساهمته في الثورة والمقاومة الشعبية:

واجهت الثورة الجزائرية منذ اندلاعها مشكلة التسليح الذي تسبب نقصه في جعل الانطلاقة متواضعة في معظم ولايات الوطن، وانطلاقاً من هذه الوضعية، كان الشغل الشاغل لقادة الثورة هو كيفية الحصول على السلاح حتى لا تختنق الثورة في مهدها، فمن المؤكد أن السلاح هو عصب الثورة، وهو في كثير من الأحيان المحدد لنتائج المعارك ولمصير الأفراد والشعوب، وما كان هذا المشكل ليطرح لولا كثرة الملتحقين بالثورة، واتساع قاعدتها الجماهيرية.

حيث أصبحت مشكلة السلاح من المشاكل الملحة التي عملت جبهة التحرير الوطني في الداخل والخارج على إيجاد حل لها، وذلك بالعمل الجاد على توفير السلاح الذي يحتاج إليه المجاهدون ومن أجل ذلك لجأ قادة الثورة إلى كافة الوسائل للحصول عليه. ومن ثم نشطت عملية البحث عنه (السلاح) في جميع الجهات الصديقة والشقيقة، إضافة إلى البحث عنه في السوق الدولية للسلاح التي كانت عملية معقدة، لأن جميع صفقاتها كانت تتم في سرية تامة،

مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018 DOI :

وتتطلب أموالاً باهظة، إضافة إلى المخاطرة واحتمالات الفشل، وبالتالي الوقوع في أيدي السلطات الاستعمارية.

إن الولايات المجاورة لكل من تونس والمغرب الأقصى كان بإمكانها الحصول على السلاح لتلبية حاجاتها أولاً، ثم محاولة توفير السلاح للولايات الداخلية في مرحلة ثانية، وذلك نظراً للتسهيلات والمساعدات التي كانت هاتان الدولتان توفرانها لقادة الثورة ومجاهديها، حيث إن معظم إمدادات السلاح القادمة إلى الحدود الشرقية والغربية للجزائر لم تكن تجد طريقها بسهولة إلى الولايات الداخلية المعزولة، لذلك فإن قيادة الثورة قد نشطت في وضع الخطط، وتكوين شبكات تتولى مهمة الحصول على السلاح من أوربا، وإيصاله إلى المنطقة الغربية من البلاد، ولتحقيق هذا الهدف، أنشأت "إدارة الاتصالات الخاصة بالمعلومات".

فلم يكن الفرنسيون شديدي الحذر في بداية الثورة. ولذلك لم يتخذوا إجراءات مشددة في التفتيش والتدقيق عبر الحدود. ونتيجة لذلك، لم تتخذ "إدارة الاتصالات" الاحتياطات اللازمة أثناء القيام بعملية تهريب السلاح إلى الجزائر، وهو أمر الذي أدى إلى اعتقال بعض أعضاء "شبكة الاتصال"، كما جعل الفرنسيين يلجؤون إلى وسائل أكثر دقة وشدة في مراقبة الحدود.

على أثر ذلك، قررت "إدارة الاتصالات الخاصة بالمعلومات" إعادة تنظيم شبكة جديدة لتهريب السلاح والبريد والأموال إلى الداخل، واعتمدت في خطتها الجديدة على ما يلي:

- ✓ تجنيد التجار المتنقلين بين المغرب والجزائر وتونس والجزائر
- ✓ تجنيد بعض الأجانب الموثوق بهم.
- ✓ اعتماد وسائل مختلفة لتهريب السلاح وتنويع طرق التهريب.

حيث تمكنت "إدارة الاتصالات" بفضل هذا التنظيم الجديد من القيام بمهمتها خير قيام، وسجلت نجاحاً معتبراً في ميدان تهريب السلاح، وبذلك تمكن جيش التحرير الوطني من الحصول في السنة الأولى للثورة على بعض الأسلحة الحديثة التي جاءته من الخارج

وقد كانت التجارة المتنقلة من أهم وسائل إيصال السلاح إلى داخل الحدود الجزائرية عن طريق البر حيث عملت "شبكة الاتصالات" على ابتكار وسائل متعددة بهدف إدخال السلاح إلى التراب الوطني. ومن أهمها ما يلي:

- ✓ صناديق الخضر: كانت شبكة الاتصالات تقوم بإعداد صناديق مخصصة لنقل الخضر، وهي ذات قعر مزدوج لا يثير الشبهة، ثم تضع بداخل القعر السفلي المسدسات وكميات من الذخيرة، وفي القعر الأعلى توضع الخضر المطلوبة، وتشحن الصناديق نحو الجزائر.
- ✓ البطيخ: استخدم البطيخ في موسمه وسيلة لنقل الذخيرة كبيرة الحجم نسبياً مثل القنابل اليدوية وذخيرة الرشّاشات الثقيلة، حيث كان يفرغ جوفه، ثم يتم تعبئته بالذخيرة، وبعد ذلك يعاد إغلاقه بطريقة محكمة بحيث لا يثير الشك إطلاقاً، ولتحقيق التمويه التام كان يوضع بطيخ عادي فوق شحنة البطيخ المعبأ.
- ✓ قلل الفخار (الجرار الكبيرة): وهذا من خلال صناعة القلل ثم وضع القنابل اليدوية في أسفلها أو عدة رصاصات، ثم تتم تغطيتها بالطين حتى تجف، ثم تشحن وبكميات كبيرة في القطارات المتوجه إلى داخل التراب الوطني.
- ✓ خزانات وقود السيارات: استخدمت هذه الوسيلة منذ البداية في السيارات السياحية والشاحنات، بحيث كان ينزع خزّان الوقود ويفتح، ثم يوضع في جوفه خزان صغير مليء بالأسلحة والذخيرة، ويترك حوله فراغ لتعبئة وقود يكفي لمسافة معقولة، وقد نجح قادة الثورة بواسطة الوسائل المذكورة سابقاً، في إيصال كميات هامة من السلاح والذخيرة لأفراد جيش التحرير الوطني العاملين في الجهتين الغربية والشرقية من الوطن، ونظراً لهذا الوضع القادم من الحدود، أسرعت فرنسا إلى محاولة عزل الجزائر عن العالم الخارجي، وذلك من خلال الإجراءات التالية:
- ✓ إقامة الأسلاك الشائكة المكهربة والملغمة على طول الحدود الجزائرية التونسية والمغربية "شال وموريس".
- ✓ مراقبة تحركات التجار المتنقلين وعمليات تهريب السلاح، والقيام بكل ما يمكن فعله لمنع ذلك.

- ✓ حماية الخط الحديدي المحاذي للحدود، والذي يسمح بنقل المعادن ومعدات الحرب. ويتعلق الأمر هنا بخطوط السكك الحديدية وقد انتهت أشغال هذا الخط المكهرب في سنة 1959 م.[34]

خاتمة:

ختاما يمكن القول أن أهم ما يمكن استخلاصه من هذه الورقة البحثية أن هناك العديد من النقاط الجوهرية التي ميزت التجارة عموما وتجار الزيتون والتمور في منطقة

القبائل خصوصا حيث أن تجار الزيتون في عاصمة جرجرة وضواحيها، كانوا يعتبرون أنّ هذه المهنة وما يتّصل بها ركيزة للاقتصاد الريفي الذي يعتبر المورد الأساسي للعائلات الريفية المحلية، تحت الظرف الاستعماري الفرنسي والظروف الاقتصادية القاهرة.

كما اتضح من خلال الدراسة أن التجارة في منطقة القبائل خلال هذه الفترة كانت عصب الحياة الاقتصادية، كما أن المنطقة شهدت حركة تبادل تجارية بالرغم من ظروف الاستعمار، إذ لم تكن مقصودة على تجار الزيوت والتمور، الذين كانوا يشكلون طبقة هامة من التجار، بل شارك فيها حتى التونسيون والمغاربة، وما يلاحظ أن المادة الخبرية عن التجارة في منطقة القبائل قليلة في فترة الاستعمار الفرنسي.

بالإضافة الى الدور الذي لعبته الصحراء الجزائرية في فترة الاستعمار كبير حقا، فعن طريقها نشطت تجارة القوافل الصحراوية للتجار الجزائريين مع مناطق الشمال عموما ومنطقة القبائل خصوصا والتي تعد نقلة نوعية كبيرة في تاريخ التجارة الجزائرية خلال فترة الاستعمار الفرنسي.

حيث ظلت منطقة الزاب، ومنطقة وادي سوف، ومنطقة وادي ميزاب، ومنطقة "وادي ريغ" ومنطقة وادي مية (ورقلة) محورا واحد ومركزا رئيسيا لتجارة التمور ومحطة قارة ومنطلقا سهلا باتجاه تونس وطريقا طبيعيا نحو مناطق التلية بالشمال، كما كان هناك العديد من الأسواق التي كانت ولازالت تقوم بدور حيوي كعصب حساس للاقتصاد الريفي خصوصا وأن منطقة القبائل تتميز بطابعها الجبلي، العديد من هذه الأسواق يرجع لفترة الاستعمار، في حين أن العديد منها لم يعد لها وجود واندثرت بفعل تراجع دورها كفضاء اجتماعي واقتصادي وثقافي.

وقد ساهمت التجارة في منطقة القبائل ممثلة في تجارها كغيرهم من التجار في كل مناطق الجزائر بشكل أو بآخر في مساعدة الثورة الجزائرية في توفير السلاح والمساعدات للمجاهدين.

الهوامش

[1] بن كردرة زهية، "أسواق مدينة الجزائر من الفتح الإسلامي إلى العهد العثماني"، (رسالة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية)، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2000، ص 211.

[2] http://www.essalamonline.com/ara/permalink/12698.html#ixzz3BVSkRC

[3] S.avant (brent d) ***rural markets in north africa***, and the political economy of the roman empire, 1981, p 37-84.

[4] Lecocq (A***), le commerce de l'Afrique romaine in B S G O***, 1932, pp 339-343.

[5] Afrique du nord antique et médiévale, **spectacles, vie portuaire, religions,** 1990 (actes du Ve colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du nord, Avignon paris, p 333-347.

[6] Cf. Ouamer oussalem, M***, l'industrie dans la wilaya de Tizi-Ouzou***, essai d'analyse en longue période, guide annuaire de la chambre de commerce de Tizi-Ouzou.

[7] Cf. Ouamer oussalem, guide annuaire.

[8] لارا الجزائري، منظمة أوكسفام الدولية، أكتوبر، 2011.

[9] عقون محمد العربي الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، 2008، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، ص 124.

[10] سعدون عباس نصر الله : دولة المرابطين في المغرب وأندلس ص 16.

[11] الوزان حسن بن محمد، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، 1983،ج 1، ط 2، بيروت، ص 135.

[12] Mauroy (M), du commerce de peuples de l'Afrique septentrionale, Paris, 1845, P 63

[13] Bisson (J), les nomades des départements sahariens en 1959, T.I.R.S, T XXI, 1er Semestre, Alger, 1962, p 200-204.

[14] Dévise (j), Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée, R.H.E.S , Paris 1972 , PP 42 ,73.

[15] عمر عزاوي، استراتيجية تسويق التمور في الجزائر، مجلة الباحث العدد 1 جامعة ورقلة 2002، ص 44.

[16] عيسى بن الذيب: "المغرب والأندلس في عصر المرابطين"، (أطروحة دكتوراه غير منشورة)، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، 2009 ، ص 131.

[17] عيسى بن الذيب: 2009، ص 133.

[18] سورة الفرقان الآية 7.

[19] سورة الفرقان الآية 20.

ISSN: 2437-041X
مجلة أنثروبولوجيا
DOI :
مجلد: 04 عدد: 07 السنة 2018

[20] فاطمة بلهواري: النظم التجارية لدويلات المغرب الأوسط من ظهور الرستميين إلى نهاية الزيانيين، ص 103-104.

[21] ناصر آيت مولود: السوق وطقوس العبور في منطقة القبائل، مجلة إنسانيات، عدد 54 لسنة 2011، مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران، الجزائر، ص15.

[22] ناصر ايت مولود: المرجع السابق، ص 16-21.

[23] صالح فركوس، "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر 1830- 1925"، مطبوعات الحقوق والآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة قالمة، الجزائر، ص 135.

[24] F. hugonnet : souvenirs d'un chef du bureau arabe. Paris 1958, p 141.

[25] محمد الصغير فراج: تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى 1954، ترجمة موسى زمولي، 2002، منشورات زرياب، القبة الجزائر، ص 183.

[26] الخشني، طبقات علماء إفريقيا، تحقيق ابن شنب محمد ،القاهرة، مصر، 1952، ص 222.

[27] بوتشيش القادري إبراهيم، إضاءات حول التراث وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي، 2002، دار الطليعة، بيروت، ط1، ص 100.

[28] الحموي، معجم البلدان: دار الصادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ص 104.

[29] Reymond marcel, au cœur du pays kabyle_ la kabyle touristique, illustrée des années trente, Alger, Ed elzyriabe, 2001, pp 7-30.

[30] Charvriat François, à travers la Kabylie et les questions kabyles, paris, librairie Plon pp 09-20 .

[31] علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج 3، ص 283.

[32] عثمان الكعاك، الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1965، ص 66.

[33] الموسوعة الجغرافية/ المجلة الجغرافية، نافذة الجغرافيين العرب - قسم: جغرافية المدن وتخطيط الحضري / الجغرافية الريفية.

[34] Mahfoud kaddache, l'histoire de lalgerie, de 1919- 1939, sned, alger, 1970, p 54.